لصلاح الدين، حداً يجعل القارىء يحس بمدى الخوف والقلق اللذين كان يحدثهما، لدى الصليبيين، تحركه هذا، فقد كان يتنقل بجيشه بشكل سريع ومفاجىء بحيث يصعب على أعدائه توقع المكان الذي سوف يظهر فيه، مما جعلهم عاجزين عن اكتشاف نواياه وتحديد الاتجاه الذي سوف يهاجمهم منه. يقول الصوري في ذلك: «كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة، عن طريق الكشافة، بخصوص هدفه الحقيقي» بحيث أبقت «التخمينات المتنوعة، والتي كانت جميعها غامضة، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين»، وكان هؤلاء يتوقعون «من يوم لآخر، أن صلاح الدين سوف يغزو، فجأة، منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة»[36].

إلا أن صلاح الدين لم يلبث أن قرّر خوض المعركة الحاسمة ضد الصليبيين، واختار موقع هذه المعركة فكان سهل حطين، غرب بحيرة طبرية، واختار زمانها فكان يوم 4 تموز/ يوليو عام 1187م (24 ربيع الثاني عام 583هـ) حيث هزم الصليبيين فيها هزيمة نكراء. ثم قاتلهم في طبرية وعكا فاستولى عليهما، وأقام في عكا، بينما أرسل وحدات من جيشه، في اتجاهات مختلفة، شمالاً وجنوباً وشرقاً، فأرسل وحدة باتجاه الشمال لاحتلال الجليل، وأخرى باتجاه الجنوب لاحتلال الساحل بين حيفا ويافا، وثالثة باتجاه الشرق والجنوب الشرقي لاحتلال صفورية والناصرة والفولة وسبسطية حتى نابلس، وما أن تم له تأمين مؤخرته جنوباً وميمنته شرقاً، حتى بدأ يعدّ العدّة لاستكمال فتوحه باتجاه الساحل الشامي شمالاً[37].

وكان صلاح الدين، لما هزم الفرنجة في حطين، قد أرسل إلى أخيه الملك العادل، وكان قد أنابه على مصر، أن ينتقل بجيشه إلى بلاد الشام، عن طريق الساحل شمالاً، فيلاقيه لاستكمال فتح هذه البلاد، فخرج العادل من مصر إلى مجدليانة (المجدل) ففتحها، ثم تابع تقدمه، مجتازاً غزة إلى عسقلان، حيث عسكر بجوارها استعداداً لمحاصرتها.

---

(36) الصوري، م. ن. ص 1058 ـ 1059.

(37) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 540، ورنسيمان: المرجع السابق، ج 2: 744 ـ 745، وانظر: الحياري، مصطفى، في كتاب «يوم القدس» ص 85، بعنوان «تحرير القدس 1187م، عبرة من الوحدة في الماضي».